الفصل الثالث

النماذج الثقافية في تفسير الصحة والمرض

تمهيد

- أولا: الأساليب الشعبية في العلاج .
- ثانيا: العلاج بالخرافات في بعض الشعوب العربية .
- ثالثا: الطب الشعبي وعلاقته بالتصورات القديمة .
- رابعا: استخدام الطب الشعبي يعيق برامج الصحة الاجتماعية.

تمهيد :

في هدا الفصل نتطرق إلى تفسير الصحة والمرض من خلال النماذج الثقافية ، أن التركيز علي العامل الثقافي والاجتماعي في حدوث المرض له أهمية بالغة الاثر في تحديد الأساليب الشعبية في العلاج ويحتوي هدا الفصل على الأساليب الشعبية المتبعة في العلاج والجزء الثاني تناول العلاج بالخرافات في بعض الشعوب العربية القديمة والجزء الثالث الطب الشعبي وعلاقته بالتصورات القديمة ثم التوافق بين الصحة والمرض .

أولا : الأساليب الشعبية في العلاج .

تنتشر في كل المجتمعات الإنسانية مع اختلاف درجات تقدمها مفهوم الطب الشعبي دلك لان الطب الحديث قد يفشل في بعض الأحيان في تفسير الإصابة لمرض ما أو إيجاد العلاج المناسب له

ونستطيع القول أن الشعوب التي تنتشر بها الأساليب الشعبية للعلاج ترجع أسباب المرض إلى عدة عوامل ومن بين هذه العوامل :-

١-العوامل فوق الطبيعية :

يرجع حدوث الأمراض إلى القوي الخارقة للطبيعة مثل الالهة اوالى كائنات غير إنسانية مثل أرواح الأسلاف أو الأشباح أو الروح الشريرة كما هو الحال في حالات السحر والحسد والعين الشريرة ، وبصفة عامة توجد عوامل داخلية تعرف بالعوامل فوق الطبيعية ، ويعتقد أن هده العوامل هي المسئولة عن حدوث الأمراض وسوف نتناول هذه العوامل بشي من التفصيل :

أ-اختراق قواعد المحرمات:

في كثير من المجتمعات يظهر تأثير الدين على السلوك حيث نجد الخروج عن قواعد المحرمات يجلب العقوبة والشر والألم للعصاه كما يستثير غضب أرواح الإسلاف ألوانا من العقوبات كالعقم ، والمرض وموت الأولاد وهدا

الأمر ليس قاصرا على المجتمعات البدائية بل يوجد أيضا في المجتمعات المتقدمة.

ويعتقد السكان في القرى الفلبينية مثلا أن الأمراض من الممكن أن تحدث بسبب اختراق قواعد العرف وعدم احترام الكبار والزنا أو عدم القيام بالطقوس والشعائر اتجاه الأرواح والعلاج في هده الحالة يتطلب القيام بالشعائر التفكيرية.

ب-الأرواح:

هي احد الأسباب التي يتم تفسير المرض عن طريقها وقد خلقت تصورات كثيرة ، حيث يعتقد سكان القبائل في نيجريا أن الأشخاص الدين يقومون بخدمة الأماكن المقدسة قد يتعرضون للمرض أو الموت المبكر بسبب غضب أرواح الأسلاف نتيجة عدم قيام هؤلاء الأشخاص بالتزاماتهم أو واجباتهم الكاملة فيما يتعلق بالحراسة .

ج- اختراق المجال المادي :

تخترق الأرواح الشريرة في هذه الأشياء المادية وتصبح جوهرها مكونا لها كالأخشاب والصخور وسبب اختراق الأرواح لهدا المجال المادي يرجع إلى الفعل الشرير الذي يقوم به الساحر لإنزال المرض بشخص ما ، ولقد ذكرت "روث بندكث ruth benidict" أن سكان "الدوبو"يحاولون التخلص من أعدائهم بإحضار تعويذة وغمسها في فضلات العدو ووضعها داخل النباتات المقدمة بعد تأكد من أن عدوهم مر عليها فيحتفظون بها مدة ثم يقومون بحرقها.

د- فقدان الشعور بالروح :

يرى البدائيون أن انفصال الروح عن الجسم أما عن طريق حادثة أو بسبب المرض أو الوفاة للكائن الحي .

ولو نظرنا إلى قبائل مورنجن " murnguin" الواقعة شمال استراليا نجد أن أقارب المريض في حالة فقدان الروح يتمنون حدوث الموت له حيث يسود الاعتقاد في أن عدم دفن الروح سوف يؤدي إلى المرض أو الوفاة لبقية أعضاء

الأسرة وعلاج هذه الحالة يستلزم اعادة الروح إلى الجسد عن طريق نوع من السح الطقوسي واستخدام التعويد .

ه- السحر والحسد :

هو الاعتقاد في أن القوى فوق الطبيعية يمكن التحكم فيها لتحقيق رغبات لصالح بعض الأفراد ، ويتطلب السحر القيام ببعض الشعائر وممارسات التي يقوم بها السحرة أو الأشخاص من أعضاء المجتمع وللسحر عدة تقسيمات إلا اننا نركز على السحر المدمر حسب رأى "ريموند فيرث" وهدا النوع من السحر يستعمل لإثارة العواطف وتدمير الثروة للإصابة بالأمراض والوفاة ويطلق على هدا النوع من السحر الأسود وهو غير مقبول اجتماعيا. (حمودي،٢٠٠٥: ٢٥-٢٦).

ثانيا : العلاج بالخرافات في بعض الشعوب العربية

التفسير الاجتماعي العربي للمرض :

في معظم الدول العربية كان الناس ولا يزالون يلجئون إلى الشيخ أو الوالي أو العارف بالله أحيانا كانوا أو أموات لاعتقادهم في كراماته واعترافا ببركاته تنساب من يده وهو يتمتم بذكر الله والرسول وقد يستعمل البخور فيشيع حوله جوا من الطمأنينة والهدوء وفي تلك الأقوال والأفعال ردود فعل لا تنكر على حالة المريض المعنوية وهدا لا ينكره الطبيب النفسي يمكننا أن نربط من بين مبدأ العلاج على يد الشيخ أو المعالج أو المشعوذ، فالثقة والاعتقاد القائم بين المريض وطبيبه وبين المريض ووليه ايا كانت هويته لمن الأسباب الدافعة للشفاء من بعض الاضطرابات النفسية التي تنعكس على إمراض وظيفية أو عضوية ، إلا أن الأمور لا تخلو من المخاطر في حالة الإصابة بمرض خطير لان التأخير أو التهاون بتكفل له عواقب خطيرة على صحة الإنسان

يقوم الطب الخرافي أحيانا كثيرة على تعاويذ وأحجبة ووضع يد الشيخ المداوي على موقع الجزء المريض مع تمتمة ودعوات قد تكون غير واضحة

وغير مفهومة لكن ذلك لا يجدى شيئا من الأمراض العضوية التي لها أسباب محددة يعرفها الطب في اغلب الأحيان بفضل وسائل التشخيص المتطورة .

ومن هنا وجب على كل ذي عقل رزين أن يتبع حديث" الرسول صلى الله عليه وسلم :" عباد الله تداووا فان الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء ، إلا الهرم " أي فيما عدا الشيخوخة فليس من دواء.

أن معظم المعتقدات الغربية والتي نشهدها اليوم في بعض طرق العلاج الدوائية يرجع تاريخها إلى الأفكار التي راودت عقل الإنسان مند القديم الذي عاش قبلنا بآلاف السنين.

ولنشأة المرض وطرق التفسير ارتباط خاص بالبيئة ، ولوعدنا إلى مجتمعاتنا التي نعيش فيها وحللنا بعض تفسيرات الناس لأمراض خاصة تصيبهم فمثلا إذا أصيب إنسان بداء عضال لقيل أن الله ابتلاه بمرض رهيب عقابا له على ما اقترفت يداه من ذنوب في حق الناس ،وإذا مرض إنسان أخر بالمرض نفسه وكان له بينهم مكانة مرموقة أو انه في نظرهم صالح ، فإنهم يعللون مرضه بنغمة أخرى متناقضة فيقولون أن الله يبتلي عباده الصالحين ، ليعلم من منهم الصالح ومن منهم القانط ، فكل الناس يمرضون ويموتون ولكن الله منحنا العقول لنبحث علميا عن مسببات الأمراض ، إذ أن لكل مرض سببا ، فان عرفنا العلة عن طريق التقصى والتجربة فإننا نصل في اغلب الأحيان إلى استنباط العلاج المناسب الذي يتمثل في دواء أو جراحة أو علاج نفسي وهدا ما تشهده العلوم الطبية الحديثة .(صالح ،١٩٧٩: ٧٩)

ثالثا : الطب الشعبي وعلاقته بالتصورات القديمة

العلاج بالطرق التقليدية له جذور قديمة ،ان التداوي بالعسل والبصل له ارتباط ببغض الأمراض أو أرواح شريرة وفي دلك تقول احدى البرديات المصرية القديمة مخاطبة الروح التي لبست الجسد فإصابته بالمرض تقول " اني أحضرت لك دواء من العسل وهدا ما يأتيك بالشر ومن البصل ما يأتيك بالضر ..عسل حلو المذاق للأحياء ولكنه مر للأموات "

كما أن هناك خرافة بابلية قديمه كانت تعزو مرض العيون أو التهابها إلى عفريت أو جني فادا عدنا إلى كهنة مابين النهرين (العراق الان)لوجدناهم يدركون أن الرياح التي تهب عليهم موسميا من الجنوب الشرقي محملة بالأتربة والغبار ترجع إلى جني أو شيطان يتقمص تلك الرياح الشريرة التى تؤدي العيون ، ولكي يسيطرون على ذلك الشيطان ويبعدوا شروره عن دورهم كانوا يجيئون بتماثيل منفردة ويضعوها إمام منازلهم حتى يتحاشها ولا تتسلل إلى دورهم على حد ظنهم .

ولاشك أن الجان موجودين في الحقيقة ، ذلك أن كل الأديان السماوية أشارت إليهم بكل وضوح لكن بعض معتقدات الشعوب تبتعد كثيرا عن المفهوم السماوي للجن ، حتى أن هده المعتقدات أصبحت تشكل جزءا مهما من وجدانهم، وفرضت نفسها على كثير من أفعالهم وأرائهم ومعتقداتهم ،ومردها يعود لأسباب عديدة،فقد تكون ناتجة عن معتقدات بدائية كالخوف من الطبيعة أو التوحد أو الابتعاد عن التجمعات البشرية، كالعيش في البراري الموحشة ومحاولة إيجاد أسباب للخوف وقد تكون معظم الخرافات عن الجن والشياطين مصدرها الكهنة و العرافون والسحرة ، وما يبثونه في عقول الناس لغرض سيطرتهم ونفوذهم ولعل السبب الاهم والدي يدخل في حيز الحقيقة الدينية، هو ما يقوم الشيطان كواحد من الجن من وسوسة لضعاف النفوس والعقول ، وقد تتفاوت درجة الاعتقاد بعلم الجن لدى الشعوب المختلفة واكبر مثال على دلك تلك الشعوذة التي يقوم بها الكهنة والعرافون لدى بعض الشعوب أو القبائل والتي يستمر بعضها إلى وقتنا الحاضر ، أن الكثير من القبائل تفسر كل الظواهر الطبيعية من كوارث وزلازل وبراكين وفيضانات وأمراض وحتى الأزمات السياسية للجن دورا أساسيا فيها .

وكان العرب في جاهليتهم يخضعون جميع امور دينهم ودنياهم لرأي الكهنة والعرافين ، وقد صرح "رسول الله صلى الله علية وسلم بهذا واثر الجن في ذلك ومدى الكذب والخلط الذي كان يدخله العرافين وكلامهم فقال عنهم الرسول علية الصلاة والسلام :"ليسوا بشيء " قالوا : "يارسول الله فإنهم يحدثون احيانا بالشيء حقا،قال:"تلك الكلمة من الجن يخطفها الجني فيقرها في اذن وليه قر الدجاجة فيخلطون فيها اكثر من مائة كذبة ".

لقد مارست الدول العربية المختلفة الطب في الماضي بطرق غريبة وان هذه الطرق لازالت سارية حتى اليوم ، ففي المغرب مثلا إذا أصاب الصداع احدهم عمد إلى ماعز أو نعجة ضربا حتى يقع الحيوان على الأرض طريحا ، وهو يقوم بهذا العمل ضننا منه أن الصداع كائن شرير ليس دماغه وانه من الممكن ترحيله إلى ماعز أو خروف .

أن هذه الوصفات الغريبة والحديثة نسبيا ليست جديدة تماما ، ويبدو انها تسير على نفس الفكرة التي سار عليها القدماء كما أن بعضها لا يزال ساريا حتى اليوم ، فلبن الحمير مثلا لا يزال يستعمل للسعال الديكي وهي وصفة فرعونية قديمة يعتقد أن دهن الثعبان أو الأفعى يشفي من أمراض الرماتيزيوم .

هدا ويذكر الدكتور تيجاني الماحي من السودان في كتابه " تاريخ الطب عند العرب"

أن بعض هده الوصفات مازالت تستخدم كطريق للعلاج وهي تستعمل أيضا في مصر وبعض بلاد المغرب العربي بطريقة فجة قد تمرض ولاتشفي .(حمودي،٢٠٠٥: ٣٢-٣٣)

رابعا : استخدام الطب الشعبي يعيق برامج الصحة الاجتماعية

من المعوقات لبرامج الصحة الاجتماعية استخدام الطب الشعبي ،ففي المجتمعات التي تتسم بالتغير البطئ يلعب الطب الشعبي دورا هاما في تحديد العادات التي اعتاد عليها عبر التاريخ ، فالطب الشعبي يعتبر عنصر من عناصر المعتقدات الشعبية ويمتد ليشمل علاج الحيوانات ،فقد اكتشف الاهالى

بعض النبتات والأمصال التي يعتقد انها تشفي من وعكات المرض الذي يتعرض له الأفراد ومن الأمراض التي يشيع فيها استخدام الطب الشعبي .

تجبير الكسور :

حيث يوجد أناس ماهرون في هده العملية ، ويقومون بإجرائها بطريقة محكمة مستخدمين ألواحا خشبية تلصق على جانبي الجزء المكسور بالإضافة إلى بعض المواد كصفار البيض ، ثم تربط بطريقة محكمة ، وهدا النوع من التجبير مازال يمارس في حالات الكسور في الوقت الحاضر رغم انتشار العلاج الحديث للأمراض المختلفة .

العلاج بالكي :

انتشر هدا النوع لعلاج كثير من الأمراض كالصداع وحالات البرد ومس الجن ، ويقوم بهده العملية احد الماهرين بل والجبارين الدين يتحملون منظر الألم والحزن ، حيث يحمى قطعة من الحديد إلى درجة الاحمرار ثم يضعها على مكان الألم بأشكال مختلفة من حالة لأخرى.

علاج اللدغات :

وهو منتشر في العالم العربي نظرا لكثرة العقارب والثعابين والحيات ويعتمد العلاج الشعبي في دلك على ربط أعلى المكان الذي حصلت فيه اللدغة بحبل ودلك لمنع التسمم من الانتشار في الجسم ثم تذبح احدي الأغنام وتؤخذ كرشها كما هي برمتها وتفتح ثم تدخل فيها الجزء الملدوغ ويربط عليه وخاصة عندما تكون اللدغة في احدي الأطراف كالقدمين أو اليدين .

العلاج بالسحر والأعمال التي يقوم بها المشايخ:

غالبا في حالات الحسد قد لا يجد الفرد في القرى البدائية ملجأ سوى الالتجاء إلى السحرة أو رجال الدين اعتقادا منه في الشفاء

فادا كان الاعتقاد بوجود المرض الوهمي عميق في النفس فان الشفاء يتطلب وقتا أطول مما لو كان المرض في بدايته ، مثال دلك العمى العصبي أو الصم

أو الاضطرابات الداخلية حتى القرحة المعدية تسببه حالات الحزن الانفعالي القوية .

و لذلك لابد أن يكون القائمون على إدارة البرامج الصحية مزودين بدراسات انثروبولوجية تمكنهم من تفهم الأنماط الثقافية السائدة في البيئة الاجتماعية التي يباشرون منها مهام وظائفهم ، وتقوم الرعاية الصحية على أساس الإقناع والتبصير عن طريق الوسائل السمعية والبصرية المختلفة التي تهدف إلى القضاء على المعتقدات الخاطئة التي تقاوم اى مشروع صحي جديد والتي تهدف أيضا إلى تنمية وتنشيط الأنماط الثقافية التي تعمل على حسن تكيف وتوفيق الأفراد مع أساليب الرعاية الصحية الثقافية الجديدة.(المليجي ،٢٠٠٤: ٢٨-٢٩)

مراجع الفصل الثالث

١- جمال حمودي ، تمثلات المجتمع الجزائري لمرض السرطان المركز الاستشفائي الجامعي لتلمسان نمودجا مقاربة انثروبولوجية طبية ، رسالة ماجستير :٢٠٠٥.

٢- عبد المحسن صالح ،الإنسان الحائر بين العلم والخرافة : مجلة عالم المعرفة الكويتية ،١٩٧٩.

٣- إبراهيم عبد الهادي المليجي ، وآخرون ،الخدمة الاجتماعية في المجال الطبي ،دار المعرفة الجامعية :٢٠٠٤.